اللسان والهوية: دريدا والخطيبي[1]

السعيد لبيب[2]

سؤالان لابد أن يشغلا كل قارئ لنصي أحادية لغة الآخر Le monolinguisme de l'autre وحب مزدوج اللغة Amour bilingue هما سؤال اللسان أو اللغة بشكل عام ومشكل الهوية.وإن رغبنا في الجمع بين المشكلين في سؤال واحد أمكن أن نقول هل اللسان كاف لكي يكون معيارا للهوية؟وهل الهوية لغة فقط (معجم ونحو)؟وكيف يستقيم الحديث عن الهوية لدى من يتحدث أو يكتب بلسانين،أو يكتب بلسان ويتحدث بآخر؟ أيعني امتلاكه معجمين وتركيبتين للكلام أم أنه يتمتع بمنظورين للعالم؟ خصوصا إذا كان معنى الهوية هو التطابق والوحدة والانسجام مع الذات والواقع والآخرين؟

نقرأ في رسالة الغفران أن آدم يتكلم اللغة العربية بالجنة وعندما هبط من الفردوس نسي هذه اللغة فصار يتحدث السريانية،ويؤول كيليطو ذلك بأن تغيير المكان لدى آدم يقترن بفقدان لسان واكتساب آخر، فندرك أن نسيان اللغة الأصل يعتبر عقابا:وبطبيعة الحال،بعد البعث والعودة إلى الجنة سينسى آدم السريانية وسيستعيد العربية[3]،أي بمعنى آخر سيستعيد هويته التي ضيعها.

يقول دريدا في أحادية لغة الآخر:"لا أعتقد أنني أضعت نبرتي وفقدت خصوصية لهجة "فرنسيي الجزائر"،حيث إن ذلك يظهر في بعض المواقف "التداولية" (عند الغضب والاندهاش والاستغراب) في الوسط الأسري أو المألوف، لكن في غالب الحالات تبرز في المجالات الخصوصية (الحميمية)أكثر مما تظهر في المجالات العمومية(ذات الطابع الرسمي بالأساس)...لكنه يحب ألا يظهر في أي من كتاباته أي أثر لهذه اللكنة [4]، بل إنه من الصعب أن تنكشف في المكتوب إلا حينما نفصح عن أنفسنا من نحن.

رأيت ذات مرة في برنامج ترفيهي مغنية مغربية الأم ومشرقية الأب،تصر دائما على القول إن جنسيتها ليست مغربية مادام ينتمي أبوها إلى بلد غير المغرب،وتحاول أن تثبت ذلك بتحدثها بلهجة من لهجات بلدان المشرق العربي رغم أنها ولدت وترعرعت وعاشت

بالمغرب كل حياتها قبل الشهرة،رأيتها تصيح مرعوبة من نمر أو أسد،دون أن تدرك،وتصرخ بكلمات من الدارجة المغربية.

تكشف هذه الأمثلة الثلاثة أن فقدان اللغة الأم-اللغة الأولية (الأصلية؟) سببه الخطأ-الخطيئة(الرغبة في قتل الطفل فينا؟)، واستعادة هذا اللسان الأولي يكون تحت دافع الخوف والقلق. نهرع للغتنا الأم مثلما نهرول إلى الأم، للحضن الدافئ الذي يوفر الاطمئنان في لحظات الفزع ويمنح السكينة بعد الاضطراب. إن اللغة الأم تتربص بنا في جميع المناسبات حتى"ولو كانت في حالة كمون"كما يقول كيليطو.

يبرر الخطيبي في دراسته لطلسم Talismano لعبد الوهاب مؤدب لجوء الكتاب إلى شذرات من ألسن أخرى في نصوصهم،كما لو أنه على النص ألا يغرق في لسانه الخاص المكتوب به(5)حيث تصير هذه النصوص عرضة للغة الأم التي:"هي لغة تَنسى ذاتها دون أن تُنسى وتلعب بالكاتب وهي تاريخ فقدان الذاكرة"(6)،على نمط حكاية آدم،وهي تؤثر على اللغة الأجنبية حيث يحدث بين الأولى والثانية "ترجمة دائمة وحوار محايث من الصعب كشفه"،ويضيف أن كل واحدة منهما تحيي من بعيد الأخرى أي "تتواصل معها وتدعوها لأن تحافظ على ذاتها في الخارج".فما تريده لغة ما-يقول الخطيبي-هو أن تظل فريدة،ألا تتقلص وتختزل في أخرى،أي مجرد تابع،أي أن تبقى بشكل فظ "وصارم أخرى"(7). بينما يجعل هذا النزوع نحو الفرادة والوحدة والعزلة والإقصاء المتبادل بين الألسن من كل ثقافة،يقول دريدا،كولونيالية،لأن كل ثقافة تتشكل من خلال فرض أحادي الجانب لسياسة لسانية معينة.حيث يبدأ التحكم[في اللغة]كما نعرف بالقدرة على التسمية وعلى فرض وشرعنة التسميات"(8). لهذا يصف دريدا علاقته باللسان الفرنسي من أنه مانع ممنوع(9)، مانع يمنع الفرانكفونيين من الولوج بيسر إلى لغاتهم الأم،مثلما منع اليهود والأمازيغ والعرب من ذاكرتهم الجماعية التي تختزنها ألسنتهم الشيء الذي يهدد هذه الذاكرة بأن تكون ذاكرة معاقة،لأننا حينما نمنع بلوغ لسان ما فإننا "نمنع الولوج إلى القول"(10)،الذي هو مفتاح كل فعل سياسي.

بهذا الشكل يمكن فهم القضيتين اللتين يضعنا دريدا أمامهما ، كقضيتين متنافرتين، حيث تقول الأولى: "إننا لا نتحدث أبدا سوى لسان واحد"وتقول الثانية: "إننا لا نتحدث لسانا واحدا".فالتجربة المتحدث فيها هنا هي تجربة كل كاتب فرانكو-

مغاربي،التي يسميها اللسانيون بالازدواجية La diglossie،حيث نكتب بلسان ونتحدث بآخر.فالكاتب المغاربي حينما يكتب بالفرنسية يكون في وضعية التقابل(أو الطباق Chiasme)، فلا هو يكتب بلغته الأم التي لا يُكتب بها أبدا ولا اللسان العربي ولا حتى هذا اللسان المتعلم (في المدارس) الذي يدعوه إلى أن يتنازل عن لغته الأم وعن لسانه العربي لينمحي فيه،وفي ذلك معاناة لا يمكن تخفيفها حينما لا يستطيع هذا الكاتب ضمان هذه الهوية المستهلة في فكر يحيا من هذا التقابل ومن حالة التشرذم والفصام"(11). ويقول الخطيبي متهكما: "لقد احتجنا نحن المغاربة إلى أربعة عشر قرنا لتعلم اللغة العربية (تقريبا) وأكثر من قرن تقريبا لتعلم الفرنسية ولم نعرف منذ أزمنة غابرة كيف نكتب الأمازيغية" (12). هكذا نحن غرباء في ذواتنا،في لغاتنا وألسننا سواء أكانت لغات أُم أو لغات مستعارة،إننا"ضيوف اللغة"بتعبير كيليطو، وإن أحيانا يصير المتكلم هو المضيف واللغة هي الضيفة،ضيفة مشاكسة عنيدة تنزل عنده بدون استئذان، فتتملكه وتسكنه على رغمه".بهذا الشكل يتأزم سؤال الهوية في "فضاء تلتقي فيه اللغات والألسن ومختلف التعبيرات التي تبحث عن لسان واحد تعبر به "فأن تكون فرانكو-مغاربي يقول دريدا ليس معناه بالأساس ثروة في الهويات والنعوت والأسماء،بل يقود إلى خلل في الهوية"(13).

لكن هذا الاضطراب هو نفسه الذي يصير عند الخطيبي تدفقا هوياتيا fluidité identitaire كما كتب في "الكاتب وظله" Le scribe et son ombre (ألا يوحي هذا العنوان بكتاب نيتشه المسافر وظله le voyageur et son ombre ؟) قائلا: "كلما زرت بلدا جديدا إلا ويكون لدي انطباع أنني قد تناسخت فيه...فأنا سويدي في ستوكهولم، وياباني في نورا Nora وفرنسي في زقاق جد صامت في باريس العتيقة".ويتساءل مثل دريدا هل في ذلك اضطراب أولي للهوية؟بلا شك،يجيب،لكن هذا الاضطراب هو أثر ذكرى،نموذج من العلاقة مع الماضي،لذلك تبدأ لعبة الهويات المتعاقبة أو المتراكمة فأترجمها في حياتي الحلمية وعلى امتداد عملي ككاتب"(14)، وبالتالي ليست ثنائية اللسان فقط معاناة،بل تحمل للألم ومتعة أيضا،فمن الجرح تظهر آلهة ونصوص وليست فقط عذابا.ولا يظهر الصمت فقط إلا حينما لا نستطيع تحمل ذلك(15)". الكتابة إذن"علامات متحركة في التأقلم مع الذات والآخر"،كما لو أن الكاتب يرسم بورتريه الخاص بالاغتراف من خزان أزمنة ماضية غابرة" (16). لهذا كان الخطيبي يرد حينما يسأل في أي لسان يفكر حينما يكتب،أنه يفكر

بلسان"صوت وصورة العلامة،بشكل مباشر أو غير مباشر في لسان أو آخر وأنه يجب الصراع ضد اللغة من أجل استعادة التوازن بين الجسد والفكر" (17). ويضيف أيضا:"أعتقد أنني مشكل من تدفق هوياتي ونزوع متعدد الأقطاب"،وبهذا الشكل يعرف الخطيبي نفسه مرارا في العديد من نصوصه أنه" غريب محترف وعجائبيExote" (الذي يعرفه سيغالان V.Segalan (18) بأنه ذاك الذي يتخلص من الاعتداد بثقافته لكي يكتشف ثقافة الآخر) والذي يعني "خروجا من الذات" على نمط"وضعية متحرك دائم في العالم،واقتحام للثغور بين الألسن والحضارات والأسواق"(19) واكتشاف للعوالم والوجود،والطقوس والفنون عبر السفر والمشاهدة والاستماع والتذكر وإيقاظ الذاكرة وثقوبها المظلمة وأهوائها الراكدة"(20).

من هو الغريب؟ "إنه ذاك الذي لا يكون جزءا من الجماعة،ذاك الذي ليس منها،إنه الآخر"،فلا حديث إذن ولا تعريف للغريب إلا بالسلب"(20). لكن هذه المواجهة بين النحن والأنا،الذات والآخر،لا تنفي التواطؤ والاختلاف،التماثل والتناقض،بحيث يمكن للأنا والهو أن يتفاهما ويتعارضا،أن يتبادلا أمكنتهما.أن ينتظرا معا قدوم غودو.فالأنا فريد،والآخر عجيب،وفي لقائهما صدام وسخرية،كما حاولت كشفه كرستيفا في Le Neveu de Rameau لديدرو.ففي هذه السخرية الصادقة وصدام الأضداد وانفجار الحدود نغوص في لولبية من السلبية تحدد الصادق الصريح والصادق المضمر، وفي انفصال هذه الأضداد المؤسسة على ثنائية الأنا والغير،نجد انفصاما في هوية الكاتب.

ستكون تبعات هذا الاحساس انطولوجية، طبعا، لكنها أيضا جينيالوجية وسوسيولوجية. تعود إلى تلك التجربة التي تسردها حكاية آدم، وأسطورة جلجاميش وانكيدو،وفي البحث عن النصف الآخر كما في **المأدبة**؛ وأيضا حينما نستعير لسان الغير لنكتب ونفكر به،لنكتب ونفكر ضده،لنحيا فيه،لنحيا خارجه. ليس كغنيمة حرب لكن كدافع من خلاله نعي أن ما نعتقده لساننا الأصلي ليس لنا.بهذا الشكل يكون الخطيبي وكرستيفا معبرين عن هجرة من الوطن-اللسان إلى اللسان-الوطن، وفي ذلك تعميم للغرابة، ككونية سالبة، فلا هوية مطلقة ومتطابقة مع نفسها إلا وتكون وهمية، واهمة. الحاجة ملحة لإبداع سيميولوجيا الغرابة، عند الكاتبين معا، التي تختفي في رموز فردية وجماعية،تقصي وتنفي الأنثوي والنزواتي فينا، وتؤجل الموت وتعطل الزمن في أعياد

واحتفالات. ما هي الكتابة إذن؟إنها الوعي بانعدام لغة ولسان كوني.ما هي اللغة؟إنها الحلم بملاقاة هذا الآخر فينا وفي الغير.

لكن أيبرر هذا الخروج،من الذات وولوج الآخر،الحكم القاسي على المغاربي من أنه شخصية تملك صورة هشة عن نفسها،وتسارع نحو الاندماج في الجماعة والانسجام مع الذات وتحترم التراتبية وتنفر من العزلة التي تجعله فردا متشظيا وكائنا إشكاليا(21)؟ قد ينبع مثل هذا الموقف من رؤية سوسيولوجية نقدية بواقعية مفرطة في الوصف،لكن أيكون النقد نقدا دون أن يكون جذريا؟دون أن يقلب البداهة إلى شك، والسطح إلى عمق؟إن الواقعية المفرطة مجاوزة للواقع، فلا ندري هل نحن أمام رسم أم فوتوغرافيا، إنها دعوة للقلق أمام استحالة الوصف.لكن الوصف هنا، في نص الخطيبي،إنما هو تعليق للأحداث وتأجيل لزمنية السرد، وقفة أمام حدث-شخصية،للتأمل.موصوف لا نختاره بل هو الذي يستفز فينا القفز الدؤوب والهرولة نحو حل العقدة.عقدة اكتمال الهوية. لذا لا يمكن أن نشكك إن كان الخطيبي قد ضل اللغة(22)، لأن ذلك يفترض وجود مرجع، مكان محدد الإحداثيات،بينما الألسن تتيه في بعضها البعض،وتستعير وتنفتح على بعضها البعض.وحينما تفشل في ترجمة بعضها البعض فإنها تستمر في المحاولة أو على الأقل تحافظ على الجوار(22). فالألسن تائهة بذاتها.الألسن أحلام وأنامنيز Anamnèse،تنادي وتستدعي بعضها البعض خارج نظامي الزمان والمكان.

من هنا كان على الخطيبي أن يصبو ككاتب شاب خرج للتو من الفترة الاستعمارية إلى إيديوم جديد بهوس مرعب"(23)، ويتساءل في "حب مزدوج اللغة" إن كان اللسان ليس مجرد ملكية خاصة بأحد ما،وأنه لم يترعرع في اللغة الأم إلا كابن متبنى؟ فذلك لأنه عاش تجربة تبن مزدوج "فمن تبن لآخر،أعتقد أنني ولدت في اللسان ذاته".لهذا فثنائية-اللسان هي حظي،هويتي الفردية وطاقتي على النسيان"(24). لكن هذا التبني هو الذي منع دريدا من الذاكرة الفردية والجماعية ومن الثقافة الأم،كان على اللغة الفرنسية أن تدفع ثمنه عبر نوع من"التملك الذي يستخدم "كتابة"مختلفة قوامها إعادة إبداع هذه اللغة ومنحها شكلا Former بإصلاحها reformer وتغييرها transformer وتشويهها déformer"، وبذلك يمكن تفسير التفكيك بأنه إستراتيجية تسائل هذا اللسان من خلال مساءلة الميتافيزيقا الغربية، وهو معبر حقيقي عن علاقة دريدا باللسان الفرنسي واللغة الغربية عموما،

ويحمل مع ذلك كما يقول نوعا من الحب والدفاع عن الفرنسية(25) ويعترف أيضا أنه يعود إلى"لسانه كأنه لسان غيره،يعود إليه لكي لا يصير هذا اللسان هو نفسه،هنا وليس هناك،هناك وليس هنا"(26). يقول الخطيبي متوجها لدريدا: "لقد اعتقدت دائما أن ما يحمله اسم تفكيك هو شكل جذري من تصفية استعمار للفكر الغربي.لقد كتبت ذلك وأكدت عليه من زمن بعيد.وكتاب ***أحادية لغة الآخر*** جاء ليمنح مثالا على البعد السياسي لهذه التصفية فيما يتعلق باللسان،لسان الآخر،لو أنني كتبت ما تؤكده أنت في هذا النص ما كان أحد ليصدقني"(27). فإذا كان دريدا يهتم ببعد الانقسام والتشظي عند الخطيبي كما لو أن كل لسان منقسم بشكل فاعل وايجابي إلى خارج وداخل"(28)، فإن الخطيبي يمدح بدوره العمل عند دريدا مع اللسان وضد اللسان بفصله عن التقليد والذاكرة الأسطورية"(28)، من حيث كون اللسان هو ضرورة ابداع أسلوب ينقل لغة النظام المؤسَّس (في خطابات ومؤسسات) ليمنح نظاما آخر يعد بمحو كل شيء،ليتجه صوب طريق اللاعودة.

ذلك هو ما يلهمنا به التفكيك عند دريدا في مقابل الانحباس في تقديس اللسان،مثلما حدث بعد مرحلة الاستعمار حيث كانت كلمة تصفية الاستعمار décoloniser، كما يروي الخطيبي،هي كلمة المرور بين المثقفين،تصفية الاستعمار من التاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة ذاتها تحت شعار اللسان العربي،الإسلام والحرية المستعادة "حيث انخرط الكل في ذلك، رجال سياسة وأدباء وايديولوجيون وطلبة في بناء العالم الثالث،وكان تعبير"الثقافة الوطنية"في مقدمة كل هذا قبل أن نكتشف أن في ذلك انغلاقا وانحباسا في التكرار والاجترار في الفن والأدب بشكل عام"(29). من هنا قيمة وأهمية بل وحصافة أن نتموقع ضمن منظور ابداع اللسان،لأن زعم التملك يسقط في الايديولوجيا بأن يمسي كل المعمار، الذي يشكل حصن وتراث الماضي ويسجن اللغة في مؤسساتها وأشكال تعليمها،في أزمة تتجسد في الفكر والعمل. "فكل حضارة هي مجموعة حجب" (30).

وبهذا يأخذ إبداع اللغة كل قوته وقدرته على التغيير وعلى تفجير انشقاق مثلما تشجع جملة دريدا على ذلك حينما تقول: "ليس لي سوى لسان واحد وهو ليس لي". اشتقاق وانشقاق، تعددية وتنافر ما بعد حداثي، والذي حتما سيهيج لدى الكثيرين نزعة

الصفاء Purisme والخُلوص Pureté التي تتحول في لمح البرق وبدون سابق انذار إلى تصفية Purification وتطهير Purge (بدلالته الحربية والبوليسية) تحت مسميات عدة منها ضمان استمرارية الثقافة ومواجهة العولمة والدفاع عن الخصوصية(31) وحفظ إرث الماضي ومحاربة التوحش والصراع ضد الاستبداد والحفاظ على الهوية والقومية... يكفي أن مالكوم Malcom رفض أن يذكر اسم ماكبث Macbeth، الطاغية، لأن اسمه يجرح ويؤلم اللغة... !(32)/

1-هذا النص هو مداخلة في الندوة التي نظمها مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات الأدبية والفنية بكلية الآداب بن-مسيك الدار البيضاء،تحت عنوان:"جاك دريدا، رؤى متقاطعة"،يوم 20 أبريل 2018.

2-أستاذ الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة شعيب الدكالي-الجديدة.[1]

3-*أتكلم جميع اللغات لكن بالعربية*،توبقال،2013، ص09

4- *Le monolinguisme de l'autre*, Galilée, 1996, p77

5 - *Incipits*, in *Du bilinguisme*(collectif), Denoël, 1985, P180(paru sous le titre «*Bilinguisme et littérature*» in *Maghreb Pluriel*, Denoël, 1983).

6- P188 Ibid.

7- Ibid. P176 sqq.

8- *Le monolinguisme de l'autre*, P68

9- Ibid. PP59-60

10- Ibid. P58

11- *Incipits*, P189

12- *Incipits*, P171

13- *Le monolinguisme*, P32

14- *Le scribe et son ombre*, P119

15- *Jacques Derrida*, "حينما أكتب فأنا أقوم بذلك في لغة الآخر وهذه اللغة ليست ملكية(خاصة)بل هي مكان فارغ لهوية تتناسخ" *en effet*, Al-Manar, 2007, P57

16- *Incipits*, PP197-198

17- *Le scribe et son ombre*, la différence, 2008, P120

18- Ibid. PP29-30

19- Ibid. P15

20- Ibid. PP43-44

21- Kristeva, Julia, *Etrangers à nous-mêmes*, (Fayard, 1988), Gallimard, P139

22- *Portrait du maghrébin (esquisse)*, in *La spécificité du Maghreb arabe*, Fondation du roi Al-Saoud, Casablanca

23- ***أتكلم جميع اللغات لكن بالعربية***،ص.83

24-"إن العالم الفرانكفوني هو تمازج بين الأجناس وخليط من ثنائيات لسانية وتعدديات لسنية متباينة. فقانون اللسان أن نتخاطب مع آخر أو آخرين، وأن نتخاصم معهم. ألم يكن اللسان الفرنسي،في أصله،مشتركا وموحدا في معجمه اللاتيني ونحوه الخاص؟ لقد أحسست دائما أن اللسان بشكل عام والفرنسي بشكل خاص قد أعيرلي،فلست وريثا مباشرا لهذا اللسان ولا لتقليده وليس لي هم أن أتحدث باسمه ولا بواسطة سلطة قد أسندت لي من جيل لجيل،لكنها (أي الفرنسية) تبنتني مثلما تبنيتها باعتباري غريبا محترفا"
La civilisation de l'intersigne, IURS, Rabat,1996, P23

Derrida en effet, P18-25

Amour bilingue, Fata Morgana, 1983, in Œuvres, T.I, La différence, 2008, P208-26

27- يعترف **دريدا** أنه لا يقبل ولا يتحمل سوى اللسان الخالص في الفرنسية،أي الفرنسية الخالصة.ومع ذلك ظل يسائل موثيف الصفاء وهو ما يدفع بالتحديد نحو اعتماد التفكيك،الشيء الذي يجعل عودته إلى الفرنسية وكأنها عودة إلى لسان آخر.وبالتالي فالدفاع عن الصفاء هنا هو دفاع عن "صفاء ليس خالص جدا"وهو كل شيء سوى أن يكون نزعة صفاء Purisme" ,P78sqq ***Le monolinguisme***

Le monolinguisme, P80-28

Derrida en effet, P34 -29

Le monolinguisme, PP21-22-30

Derrida en effet, P14 -31

(préliminaire), Marsam, 1997, PP85-86 ***Paradigmes de civilisation***, in Œuvres -32

Ibid, P72 -33

34- "نعيش عصرا حيث يطرح سؤال أننقذ الناس أم ننقذ إيديومهم ولسانهم؟ لأنهم يجدون أنفسهم اليوم ملزمين بتعلم لسان الأسياد والرأسمال والآلات،عليهم أن يضيعوا إيديومهم من أجل أن يبقوا أحياء أو من أجل أن يعيشوا بشكل أفضل"P56, ***Le monolinguisme***

35- (… ce tyran, dont le nom blesse notre langue!)

صدر حديثا